وما هو بقول ناقد !!

أن يكون الدكتور ماهر شفيق فريد «ناقدا عربيا» لا يقل غرابة عن قولنا «قصيدة النثر» فالرجل متخصص فى أدب الإنجليز ويفترض أن يكون له رأى فى الأدب الذى نذر نفسه له، لكن الأمور الآن أن أمثال د. ماهر يتركون ما يمكن أن يفيدوا فيه، ويهرعون الى ما لا قِبَل لهم به ولا طاقة، ومن ثم تزول الغرابة اذا قال هؤلاء إن هناك شيئا يرضى به العقل يسمى «قصيدة النثر».

لا شىء أدعى إلى الاستخذاء من محاولة مسخ فننا الأول «الشعر» لا لشىء إلا لكى يكون مثل فن أجنبى، إذا صح فى لغته فلا يصح فى لغتنا، بل إن العقلاء منهم لا يرضى أن يمهر نثره - وهو فى قمة للشاعرية - بكلمة «شعر» ويقرأ المرء خوان رامون خمينيث فى «أنا وحمارى» على أنه نثر، وكذلك رائد الحداثة روبن داريو يسمى الأشياء باسمائها، وهب أن هؤلاء سموا نثرهم شعرا فهم أحرار فى لغتهم ، ونحن أحرار أيضًا أن نأخذ عنهم أو نهدر كلامهم إذا لم يتسق ومنطق الفن الشعرى فى لغة العرب، والا فأى استخذاء هذا . !!

الشباب التافه الذى يكتب ما يسمى «قصيدة النثر» ويرفضه د. ماهر، لماذا يرفضه ؟ لأن أصحابه شباب أو شابات ليس هذا بعلة، فالشباب سوف يكتهل أو يشيخ ويكون مثل أدونيس فيما بعد، ما الذى كتبه شيخهم الأكبر وشيعته سوى العجز الذميم، وهدر قواعد فنية لا لشىء إبداعى عظيم وكيف بقبول هذا الهذر الهزل : مكان ولادتى ١٩٣٠ الشمس قدم طفل ، عرفت أقل من امراة لأننى تزوجت بأكثر من امرأة، عرفت أقل من رجل، لأننى تزوجت بأكثر من رجل. . الجسد أطول طريق إلى الجسد، إلى أخر هذا اللغو الذى يعيى أمثال المعرى والمتنبى وشوقى وصلاح عبد الصبور وحجازى وغيرهم، وهو لا يعدو لعب الحواة والمهرجين الذين تشك فى قدراتهم العقلية.

دعك إذًا من العناصر الشعرية الباطنة والإيقاعات الداخلية التى يدعو اليها

د. ماهر ود. محمود الحسينى وغيرهما، فكيف يدرس الأساتذة لطلابهم مثل هذا الكلام ووصفه لهم ولا يستطيعون العودة فيه إلى نظام أو قاعدة. ثم لماذا الإصرار على أن يكون الناس جميعًا شعراء ،أدونيس وشيعته كانوا يقولون كلاما لا بأس به أولا ثم انصرفوا إلى العبث ونعتقد أن الشعر الحر كان إحدى الوسائل لهذا النبت الشيطانى «قصيدة النثر» وأصحابها يرون فى الشعر الحر تخلفا ورجعية !!

سوف نستأذن الداعين الى هذا العبث أن نتمسح مثلهم بالإيقاعات الداخلية والعناصر الشعرية الباطنة، أن ننشر مرة أخرى كلام الرافعى وحسين عفيف وطه حسين والمنفلوطى والزيات على طريقة دواوين الشعر، ونلغى النثر من لغتنا إلا إذا كان إحصاء أو علومًا، وربما يعاتبنا دعاته بأن نزج العلوم التطبيقية لتوترها وتوتر أصحابها ضمن «قصيدة النثر» .

بل سوف نستأذن أكثر بأن نعيد طباعة القرآن الكريم ـ والعياذ بالله ـ وأن ننشر دواوين منه «سورة مريم، طه، جرء عم يتساءلون، الرحمن» على طريقة الأسطر!! ونعتقد أن الإيقاعات الداخلية بارزة بوضوح فى كل هذا !!

بل سوف أستأذن د. ماهر وأضم مقاله فى الأهرام الأدبى ٢/ ٥/ ٩٥ تحت دائرة «قصيدة النثر» ففيه كل شرائط هذا الكلام الذى يدعوا إليه، خاصة هذا الانفعال غير الموضوعى، وهو من عناصر الشاعرية ـ وأعده ـ ونحن من المحافظين الزائدين عن الحاجة، وحسبه أن يظل وحده ففيه كل الكفاية ـ أن نسمع كلامه فى الأدب العربى إذا سمع الإنجليز آراءه فى أدبهم، وإذا أدرك موسيقى الشعر العربى كما يدركها المستشرقون، وإن كنا نخشى على أنفه أن يكون من الراغمين !!

اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم

خلاصة فكر أصيل متجدد ، وتجربة عميقة تحيط بالعربية أصولاً وفروعًا ، ترفده نظرة دءوب ، تستلهم التراث غائر الجذور ، وتستضئ بالوافد المعاصر دون أن تعشى به ، حيث تستعصم بفكر ناقد ، يرتكن إلى غيرة ونخوة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور كمال بشر العالم اللغوى الكبير ، وعضو مجمع اللغة العربية ، وأستاذ العربية بدار العلوم ، وله تاريخ حافل فى هذا الحقل المنذور له ، منذ بداياته الباكرة ، حفظًا للقرآن الكريم ، ودراسة فى الأزهر ثم دار العلوم، وحصولاً على الدكتوراة من جامعة لندن ، وقد استقام له نطق متفرد منذ ميعة صباه الأول ، وتبصرًا بفروع العربية أصواتًا وصرفًا ونحوًا ودلالة ، وأثمر ذلك كله ثمرات مباركة تأليفًا فى العربية وترجمة إليها من الإنجليزية ، وقبل ذلك وبعد ذلك غيرة كريمة على لغته ، حين يفتقدها بعض من درس دراسته ، وألف مثله ، وهو محاضر من الطراز الأول يروقك منه ذكاؤه ، وجميل عرضه وقوة عارضته ، ولغته المنخولة الموقعة وإن كانت نثرًا .

جاء كتابه هذا خلاصة مركزة فى أوان النضج الشديد والتريث فى المعالجة ، وإن لم يخل من حماسة موضوعية نراها حقيقة بهذه الصفة ؛ لأنها حماسة الشيوخ الكبار لاتأنف من التجديد وفتح النوافذ ، ماكان هواؤها نقيًا ، بريئة من غرارة الشباب وإن كان فيها الشباب .

تكسر الكتاب على بابين كبيرين ينتظمان عدة فصول ، الباب الأول تحدث عن «الواقع المعاصر للغة العربية ، وموقف الناس من هذا الواقع» وقد عالجت فصوله الثلاثة ، الواقع المعاصر للعربية ، والمشكلة اللغوية بين الوهم وسوء الفهم ، واللغة بين الطبع والصنعة ، وتناول فى الباب الثانى «من مشكلات اللغة العربية» المشكلات القديمة عن تقعيد اللغة ومناهجه ونظام الكتابة العربية ، والمشكلات الحديثة ، عن النظرة الاجتماعية والنزعة إلى التغريب ، وسيطرة العاميات ، والعربية فى دور التعليم والعربية لغير العرب .

وعنوان الكتاب بداهة يشى بأزمة تتأشب بين الواهمين وسيئى الفهم ، وكلاهما لاحق له فى قول عن العربية ، لكن الواغلين عليها كثير ، يتداعون ببضاعة مزجاة، وهؤلاء خطرهم داهم ، حيث يملكون من وسائل التأثير مالايملكه أهل اللغة الذين هم أحق بالكلام ، لكن الدكتور بشر امتلك من الشجاعة مايواجه به تلك الجحافل التترية ، الداعيين إلى العاميات حينًا ، ولهم صوت زاعق جدًا هذه الأيام وإلى مستوى العربية المعاصرة حينًا آخر ، وتلك قولة حق يراد بها باطل ؛ لأن الحديث عن المستويات فيه تمزيق لوحدة اللغة وإن لبس طيلسان الموضوعية والبحث العلمى ، كما واجه المؤلف كليات التربية- وتقتضى حملة خاصة - التى تدرس العربية قشورًا مخنوقة بمناهج التربية ، أما مدارس اللغات وأقسام اللغات الأجنبية بالكليات النظرية ، وإنشاء جامعات أجنبية ، فكلها تحاصر العربية وأهلها فى رأينا ، وتنزوى العربية تعتصم بصمودها .

وأوجه الاتفاق بين الأستاذ الكبير وبينى أكبر من أوجه الاختلاف ، حيث أرى عدم الأخذ بتعدد الأنظمة إلا فى مجال البحث العالى . . أما الدرس للطلاب فينبغى عدم الأخذ بالتعدد ، نظرًا لطبيعة العربية وتاريخها ومثَّل له الأستاذ بالأفعال الجوفاء (قال وباع) وللبحث فى قواميس اللغة ، كما ألمس حيرة فى تعبير الأستاذ عن «اللغة الفصحى أو الفصيحة» حيث يريد أن يترخص ، ونعتقد أن «الفصحى» أدق حيث تشى بالتميز وهو مطلوب وله أهله ، كما يمكن أن يكون أفعل التفضيل على غير بابه ، غير أنى أحمد للأستاذ بشر موقفه من العاميات ومن الرطانات الضاغطة جاهلة وسيئة النية ، وأحمد له لغته «الفصحى» لا «الفصيحة» فقط ، فى بيانها المشرق ولعله حين كان يكتبها إنما كان ينطقها مستمتعًا؛ لأنها بيان راسخ فى غير حاجة إلى طلاء ، ولو كان طلاء الزينة والرواء.

من حديث اللغة والشعر

يكثر اللغط كـما يكثر الغلط هذه الأيام حول اللغـة وتدنى مستواها ، وكيـفية العلاج والخروج من الأزمة ، وحول الشعر مستوى ومصطلحًا ، وجمهور الشعر ، وكيفية اجتذابه مرة أخرى بعد إحجامه .

والحق أن استشعار الأزمة باب من أبواب عـلاجها إذا صحت العزائم وشحذت الهمم ، وقد ألف الناس جمعيات وعـقدوا ندوات ومؤتمرات ولجانًا تجتمع وتدرس وتقترح الحلول وتقدم التوصيـات ، غير أن الأمر لايخرج عن باب الكلام وتنفض الاجتماعات بسلام .

فى جانب اللغة ثمة أكثر من جمعيـة ، لاتفتقر إلى حسن النية والفأل الحسن ، وكل منهـا لايؤدى إلى الغاية المرجـوة وهى عزيزة عـسيرة الطريق ، بـعد أن طال الأمد بأبناء هذه الأمة آبقـين عن لغتهم وعن الاهتمام بهـا ، لائذين بلغات أخرى تتمثـل فى التعليم الأجنبى . وإن لبس مسوح العـربية أو المصرية - منذ البـواكير الأولى للناشئة ترتضع الإزراء بلغـتها وتلوى لسانها بلغة أخـرى ؛ لأنها فى رأيها لغة الوجاهة والشـارة الاجتماعيـة الملحوظة ، وتئول القضيـة إلى فكر آخر يربطه بالعربية شهادة الميلاد أو الاسم .

ومن عجب أن مصـر - وهى رائدة العروبة - كانت أيام الاحتلال تهتم بلـغتها كما تهـتم باللغات الأجنبية الأخـرى ، ولم تكن الأزمة مستحكمـة كما هى الآن وكأن مقـاومة المحتل كانت تبعث فى عروق أبنـائها النخوة أو «المصل» الذى يطارد «فيروس» العجمة الضاريـة ، وحين آل أمرها إليها ركن الناس وادعين آمنين ، مع أن الواجب أن تنهض أكثر وأن تتقدم لغتها كحال اللغات لدى الأمم الناهضة .

ذهبت إلى إسبانيـا عاثر الخطى فى الإسبانية وأردت شراء خبـز - لايبيع محله غير الخـبز - فنطقت ban بدلاً من pan الكلمة الصـحيحة وإذا بالبـائع يقول ليس عندى فاستخدمت لغة البكم «الإشارة» فنطقها صحيحة بطريقة أحسست منها أننى

أخطأت خطأ جسيما ومعه حق ويكرر الرجل الصواب ، ولم ينس أن يشيعنى بازدراء استحقه لم أفهمه ساعتها !!

هذا نمط نحن فى حاجة إلى مثله حتى من المتخصصين المتساهلين ، الذين لايرعون إلاّ ولا حرمة .

وحرمة اللغة من حرمة العرض . . نحن لانستخدم العربية استخدامًا صحيحًا وتقلص هذا الاستخدام حتى فى قاعات الدروس الجامعية التى تعلم العربية ، وغدونا نستمع إلى مايشيع من الفصحى والفصيحة تساهلا !!

الإعلانات التى تملأ وسائل الإعلام والنشرات التى تكتب بلغة أجنبية وأسماء المحال التجارية وغير التجارية وأحاديث المثقفين المطعمة بالكلمات الأعجمية ، وكأن العربية إثم أو عار أو عاجزة عن مطاوعة الألسنة .

حتى الأماكن التى تنتظر منها لغة سليمة بريئة فى نطقها وقواعدها من اللحن والخطأ أصبحت هى الأماكن التى تنتظر منها العجب فى الأخطاء قبل غيرها ، ولعل القارئ يلقى السمع إلى كثير من خطباء المساجد - وكنا نتعلم منهم العربية قبل دروس الدين والفقه - ليدرك أن مخارج الحروف أصابها الإعلال والإبدال ، حتى فى نطق القرآن الكريم والحديث الشريف ، وغاب عنها علم التجويد الذى كنا ندرسه فى مراحل الدراسة الأولى بالأزهر فالقاف كاف والذال زاى ، وبقية الحروف لاتعرف لها هوية . . ودعك من النحو واللغة فالأصوات هى البابة الأولى فى اللغة ، وعلى القارئ - غير مأمور - أن يذكر B و P وماشاكل ذلك أما الآيات القرآنية فلاتعرف النحو على الإطلاق على ألسنة الجمهرة منهم .

هناك حلقة مفقودة فى تعليم العربية ندور حولها ولانكاد نباشرها لمسًا تتمثل فى استشعار العيب والنقص ، حين تشيع هذه الظاهرة التى لن يجدى معها عقد ندوات وجمعيات ومؤتمرات وتوصيات . . ولابد هنا من جهة منفذة تملك الثواب والعقاب ، وتملك إيجاد هذا الإحساس ورعايته ، وربما كانت وسائل الإعلام كلها تملك العلاج النافع السريع ، حين تطبق هذا على العاملين بها ؛ لأنها تستولى على ألسنة الناس فى التو واللحظة إعلانًا وخبرًا ومسلسلاً وأغنية وحديثًا ، وربما

غاب عن القائمين على تربية النشء طريقة تعليم النحو وقواعد البلاغة ، ولايتأتى ذلك إلا من خلال نصوص أدبية جميلة تستنبط منها القاعدة والمثل ؛ لتأتى بعد ذلك مرحلة التوسع فى المبسوطات النحوية والبلاغية ، ولعل المرحلة التى كان يدرس فيها الطلاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة لعلى الجارم . . والمنتخب من أدب العرب هى المرحلة التى تعلم منها الناس كيف يعرفون النحو ، وكيف يتذوقون الشعر ويتدسسون فيما بعد إلى فهم لغتهم ، كما يجب . . يستوى فى ذلك الطلاب المتخرجون من أقسام اللغة العربية أو اللغات الأجنبية أو حتى أقسام الفلسفة والتاريخ والاجتماع وكان لنا منهم كتاب ومترجمون كبار مثلوا زمن النهضة فى القرن الماضى .

ومن اللغة إلى الشعر الذى هو «لغة شاعرة» . . كان لدى الناس خيط ذهبى يربطهم بماضيهم الشعرى الزاهر ، يتعلقون به وينسجون له امتدادًا يتطلع إلى التجديد والأفق الفسيح ، ويحس المتابع بأن هذا الذى يقرؤه نبت فى تربة الشعر الصحيح دون أن يحمل سبخ هذه التربة ؛ لأنه يتنفس فى هواء نقى بعيد عن الجذور الميتة «التقليد» أو التسلق الهلامى المبعد له عن أصالته ولون سحنته . . هكذا كانت النهضة فى مصر على يد البارودى وعلى «اليافى» ، الذى سبق البارودى - وهو من أصل دمياطى - فى شعر الشخصية وعلى يد شوقى والجارم وحافظ ومطران وإخوان هذا الطراز ، ثم امتدت النهضة واستحصدت لدى جماعة الديوان العقاد والمازنى وشكرى ونمت وتطورت عند جماعة أبوللو ، وإخوانهم من شعراء مابعد الديوان عبدالرحمن صدقى وأحمد مخيمر وأضرابهم .

كل هؤلاء مجددون ذلك التجديد ، الذى يتعلق بطبيعة الشعر العربى تجربةً وأداءً ، وامتد هذا التجديد لتستظل به المسرحية الشعرية والقصة الشعرية ، الخيط فيه ممتد وموصول ومشرئب للأفق الوسيع ؛ حيث اطلع بعضهم على شعر الأمم الأخرى ولم يذوبوا فيه ، بل أخذوا منه مايتفق وطبيعة لغتهم وشعرهم ، وتلك هى الفائدة المرتجاة .

ثم نجمت حركة الشعر الحر فسلكت طريقًا آخر نختلف حوله أو نتفق . . لكننا نتفق حول حقيقة واضحة هى تغيير الطبيعة ، كما نتفق أيضًا على أن بعض كبار

هذه الحركة نبتوا فى رحم الشعر العربى الأصيل سرى فى كيانهم ، ولايمكن للناقد فى هذه الحالة أن يسمهم بالعجز ، وإن كان كثيرون منهم رائدهم العجز ممن دخلوا الحركة دون ركيزة شعرية راسخة . . ومن هذا الكثير كبار ، يقرأ المرء كلامهم فى الشعر الموزون المقفى فلا يهتف به إلا هاتف الخذلان والعجز ، لكنهم أذاعوا هذا الكلام بما يملكون من وسائل البث والإعلان وحين رحلوا أو سكنوا سقطوا من ذاكرة الشعر والناس .

أساء هؤلاء العجزة إلى الحركة وهم كثيرون ، كما أساء النظامون إلى الشعر الموزون المقفى ، لكن القارئ سرعان مايلفظهم . . ومن ثم كان بلاؤهم أخف ، ولأن الباب إذا اتسع لايضيق عادة فقد خلف من بعد حركة الشعر الحر أو نسل منها إن شئت أرادوا أم لم يريدوا خلف أضاعوا الوزن أو أضاعهم ، لأنهم لايملكونه ، واتبعوا سبيل النثر ولماذا لايجربون وقد جرب قبيل قبلهم فرأوا فى السابقين من حركة الشعر الحر جاهليين وتقليديين ، وأن الوزن ليس جوهر الشعر، وحسب المرء أن يكتب خواطره فى كلام يدابر بعضه بعضًا يكتنفه الغموض، حيث لايعرفون الإبانة وهى قدرة، وتلعنه اللغة لركاكاته وتهافته . . يتصدرون المجالس والندوات ، وفى كثير منهم قحة وادعاء وفى بعضهم قدرة اجتماعية على جذب أشباه النقاد ، وهم بلاء فى كل زمن أشادوا بهم نفاقًا وارتزاقًا ؛ خاصة إذا كان هذا الدعى صاحب برنامج أو عمود صحفى باهت . . وفى هؤلاء الأشباه ظمأ إلى الشهرة ، وفى بعضهم خشية غريبة أن يهتم بالتخلف وعدم مسايرة «الجديد» يملأون الدنيا ضجيجًا بهؤلاء «الكتبة» وصدّق هؤلاء وأولئك أنفسهم حين خلت الساحة ، فغدوا «شعراء العصر ونقاده» وأحس أصحاب الشعر الحر بالخطر على الشعر واللغة وربما على مكانتهم وتاريخهم . . فحاربوا هذه الحركة الأخيرة، كما أحس النقاد منهم بهذا الواغل الجديد ، فألفوا الكتب فى محاربتهم، بعد الخراب والدمار الذى ألحقوه بالشعر - فن العربية الأول وسر أسرارها - وهم أول العارفين أن التسيب يستتبع تسيبًا ، وأن الاستسلام يؤدى إلى ماهو أخطر منه .

العلة فى رأينا تئول إلى غياب القاعدة أو «المصطلح» ما الشعر أولاً ! نحن مع

التجديد أولاً وأخيرًا ، ومع التجريب فى نظام القاعدة ، ونعتقد يقينًا أن الوزن الخليلى - تجربة ودراسة - يتسع لشاعر مجدد لديه مايقوله وفى ذرعه الإبانة عن نفسه يستوى فى ذلك شعر الغناء وشعر المسرح والقصة ، وأن النثر مكانه حظيرة النثر . . وربما يكون أفضل من الشعر إذا رزق الكاتب الموهوب وأن الشعراء من أبناء الأمم الأخرى ، خاصة الكبار ومنهم ، يرون نثرهم نثرًا وإن كان فى ذروة الشاعرية منهم خوان رامون خمينث «نوبل ١٩٥٦» وروبن داريو «شاعر نيكاراجوا الأكبر ورائد الحداثة» ، ولهم دواوين شعرية خالصة فى ذروة عالية من الشعر .

أما عندنا فذوو العاهات من أصحاب النثر يقحمون أنفسهم فى ديوان الشعر ، وربما لو خلصوا للنثر؛ لكان لهم مكانهم الذى يعتز به ذلك الفن الرفيع ومكَّن لهم أن دور النشر - حتى القومية منها - تنشر كلامهم على أنه شعر ، ويتقدمون به إلى جوائز الدولة غير أنهم يرتدون ، لكن الأمور إذا لم تؤخذ بجد . . فسوف يجدون فى المستقبل القريب من يمنحهم جوائز الشعر فى مؤسسات الدولة ، وقد تسرب إليها بالفعل بعض الأعضاء ، كما تسربوا إلى منتديات الأدب المصرية والعالمية باسم الشعراء ، ونعتقد أن المسألة فى حاجة إلى دراسة نفسية تفضح هذا النقص والتشوه ؛ لأنه لايتعلق بالكلام بل بشخصية كاتب الكلام .

إن حماسة التجديد تدفع ببعض الناس إلى الطرف المقابل ، وتركبهم مراكب يتريث دونها الحصفاء ويتقدم الزمن فتخف هذه الحماسة ، يعتريها شئ من الخشية على مستقبل اللغة والشعر ، وهى خشية محمودة ومشكورة . . ولكن الزمام قد أفلت كثيرًا ، ويحتاج إلى تضافر جهود كثيرة ربما كان «الكلام الموزون المقفى» صاحب الكلمة فيه ، إذا أردنا لهذا الزمام ألا يطيش ، وأن يظل فى أيدينا نعيد به الاتزان ونعيد القاعدة ونعيد وجوهنا ، قبل أن تطمسها الضغينة النكراء على لغتنا وعلى شعرنا وعلى هويتنا .

أخلاقيات العمل الإعلامى

موضوع عسير ، لندرة المصادر العربية من جهة ، وللقضايا الشائكة التى يعالجها ؛ حيث يحتم دراسة الوثائق والقوانين ، والاستقراء التاريخى ، لافى مجتمع واحد ، بل فى مجتمعين كبيرين كالمجتمع الأمريكى والمصرى ، واستئناسًا بالمجتمعات الغربية الأخرى ، توضيحًا للظاهرة ، ومقارنة بين فهم النص وتطبيقه.

إلا أن هذا الموضوع مع عسره شديد الجاذبية ؛ لأنه يقفك على ظواهر حيوية، خاصة حين تتناول الدراسة المجتمع الذى تعايشه ، وتتحسس مشكلاته ، وتقارن فى الوقت ذاته بين مجتمعات أخرى ، لاتتفق فى التقاليد والعادات والقوانين .

ومؤلف الكتاب الأستاذ الدكتور حسن عماد مكاوى رجل تخصص فى الدراسات الإعلامية ، ومتخذ لها الوسائل العلمية ولايطرق الموضوعات الشائعة ، بل إنه يعالج عويص المسائل ، التى لاتنحصر فى حقل تخصصه فحسب ، بل يمد بصره إلى التاريخ والفلسفة والقانون ، مرتئيًا أن الدراسات الإعلامية لها صلة بهذه المجالات ، بل لاتقوم إلا بها ، وإن كان المظنون غير ذلك .

يتألف هذا الكتاب من أربعة أبواب ضخام ، كل باب يضم جملة من الفصول، تحتوى على معلومات وفيرة ، ترتكز على مصادر أجنبية كثيرة ، فعالج فى الباب الأول تطور حرية التعبير والصحافة ، وفيه فصلان عن الإطار التاريخى والفلسفى لحرية التعبير ، وعن حرية الصحافة فى المجتمعات المختلفة ، ويعرج على هذا المفهوم فى المسيحية والإسلام والمجتمعات الغربية والعربية ، وتناول فى الباب الثانى حرية التعبير وحقوق المجتمع ، وفيه ثلاثة فصول : الرقابة الحكومية وقوانين التحريض ، ورقابة التنظيمات الخاصة لوسائل الإعلام ، ووسائل الإعلام والحكومة : من يراقب من ؟ .

وفى الباب الثالث تحدث عن حرية التعبير وحقوق الإعلامى وفيه فصلان :

الحق فى حماية سرية المصادر الإعلامية ، والحق فى معرفة مايدور فى المنظمات الحكومية ، وفى الباب الرابع تناول حرية التعبير وحقوق المواطن وفيه خمسة فصول : الحق فى حماية الشرف والاعتبار من جريمة القذف ، والحق فى حماية الخصوصية ، والحق فى محاكمة عادلة ، والحق فى النشر ، والحق فى حماية الآداب العامة من الأعمال الفاحشة .

والحق أن هذه المباحث مسهبة ومتعمقة ، ولاتهم القارئ المتخصص فقط ، بل تمتد إلى اهتمامات القارئ غير المتخصص ؛ فهى تشبع رغبة الإعلامى ، والمؤرخ، ودارس الفلسفة والقانون ، وتهم رجل الأخلاق والضوابط العامة ، وقد أسعدت المؤلف مراجعه المتنوعة ، محسنًا استخدامها والإفادة منها ، ومناقشتها ، ومباحث القوانين فى تصورنا عسيرة ومملة ، إلا أن الدكتور عماد استطاع فى حذق أن يصوغها ، فى لغة محددة وعلمية لاتزيد فيها ولافضول .

ويحس القارئ خلال المقارنات التى يعقدها مدى حرصه على الموضوعية العلمية، وفى الوقت ذاته يحس هذا الفيض الودود ، وهو يعالج القضايا فى بلده مصر ، فتسرى بين سطوره تلك الأمنيات ، التى يلمحها القارئ لسد الثغرات التى يمكن أن تعترى اللوائح والقوانين أو تنفيذها أخلاقيًا . . . هنالك تحس أن الكاتب إنسان أولاً ، تؤرقه مشكلات وطنه ، وكأنه يقول لك إن بلدنا يستحق تلك الحرية فى التعبير وفى النشر ؛ لأن أخلاقياته وتقاليده وآدابه المرعية لها ذلك السلطان ، الذى يجعل العمل الإعلامى فى بلد مثل مصر أخلاقيًا فى المقام الأول .

وفى الكتاب طرائف كثيرة ، ومفارقات ترضى القارئ المتعجل والمتريث أيضًا ، غير أن هذا القارئ فى حاجة إلى سياحة فى تضاعيف هذا الكتاب ، الذى أضاف إلى المكتبة العربية مؤلفًا جديدًا فى حقل عسير ونادر .

شعر الحداثة فى مصر

هذا كتاب ضربت حوله أسوار من العزلة والاحتجاب ، وكأنما أريد له أن يظل فى الأقبية الرطبة ، يتهامس حوله الناس دون أن يعلو صوت بالحديث عنه ولولومًا واستهجانًا وهو ضرب من الكنود ، الذى لايليق بحركة النقد ، التى يجب أن ترى وتحلل وترفض وتقبل ويئول الحال إلى مؤامرة من الصمت ، تحجب الصوت الآخر ليموت «بالسكتة القلبية» .

لكن بصيصًا من الضوء تسرب فى تلك الحوالك إذ أقامت جماعة دار العلوم برئاسة د. الطاهر مكى بمناقشة نقدية لهذا الكتاب ، قام بها الأساتذة على عشرى وشفيع السيد وعبدالحميد شيحة ، ودار حولها حوار من جمهرة الحضور .

والدكتور كمال نشأت شاعر أولاً وناقد ثانيًا ، وشهدت بداياته جماعة أبوللو وخرج عليها وعلى القصيدة الموزونة المقفاة ، هو وبعض رفاق جيله ، مثل فوزى العنتيل ومحمد الفيتورى، وكتب شعرًا حرًا ثم احترف النقد وعمل بالجامعات العربية ولم يهجر الشعر ، فأصدر طائفة من الدواوين .

وقد درس فى كتابه ابتداءات الحداثة وانحرافاتها وأزمتها ، واستغرق ذلك كله أحد عشر فصلاً ، دار فيها الحديث عن شعر الحداثة فى مصر وعن معجم أودنيس. ومعجم شعراء الحداثة وعن تركيب الجملة لديه ولديهم وتناول ظاهرة الغموض والتصوف والصورة وقصيدة النثر والإيقاع وانتفاء الوجدان وشعر الحياة اليومية والنقد الحداثى . .

وهذه الظواهر احتشد لها المؤلف ، ورجع فيها إلى كم ضخم من الكتب والدوريات وصنف كل هذه الظواهر ورتبها موضوعيًا وقرن الأشباه والنظائر محللاً وناقدًا رابطًا بين هولاء الحداثيين وأدونيس وتقليدهم له .

وواضح أن الجهد المبذول يعيى فردًا واحدًا . . لكن المؤلف كان متعقبًا للظاهرة وواضح كذلك الإدانة لهذه الانحرافات .

وفى الحقيقة أنا أتفق مع المؤلف فى كثير مما ارتأه ، مدركًا معه مدى الخطر الذى يتهدد الشعر العربى الحقيقى ولغتنا الشريفة والأدب العربى فى مصر خاصة ، لكن اختلف معه أيضًا فى كثير آخر ، ولعل أهم مانختلف فيه أن هذه الحداثة نسلت من الشعر الحر حين ارتضى ألانحتكم فيه إلى قواعد ضابطة ، وهاجم دعاته منذ نصف قرن تقريبًا القصيدة الموزونة المقفاة ، ولها قواعدها الراسخة ودعك ممن ينتسبون إليها نسبًا غير شريف لأنهم أعداؤها قبل الحداثيين ، وأملى لهؤلاء الدعاة نقادهم والطرفان فى مأزق حقيقى الآن لأن أصحاب الحداثة أفلتوا من سلطتهم ، وكلما دخلت أمة لعنت أختها . . ويرى الحداثيون الآن أن أصحاب الشعر الحر جاهليون ، وتجاوزهم الزمن وهى التهم نفسها التى كان يوجهها أصحاب الشعر الحر إلى أصحاب الشعر الموزون المقفى «وكما تدين تدان» وغدا أصحاب الشعر الحر وكأنهم يدافعون عن وجودهم هم ، ولو لم تصبهم سهام الحداثة فربما لايعبأون ، ونقادهم الآن فى حيرة واصبة ، يوجهون ضرباتهم أيضًا إلى الحداثيين، وكانوا يسبحون بآلاء أصحاب الشعر الحر ويقولون دعوهم فترة من الزمن حتى تنضج تجربتهم وهاقد نضجت وولدت نسلاً غير شرعى ، لايعترف بها . . ومن هذا المنطق ذاته أقول دعوا الحداثيين أيضًا خمسين سنة أخرى ، حتى تنضج تجربتهم، حرية بحرية وهل حرام على بلابله الدوح ؟

دكتور كمال : أنت مع أصحابك أحدثتم خرقًا للقاعدة الذهبية ، فلا بأس من خرق آخر والبقية تأتى ولست أخفى «شماتتى» فيك وفى أصحابك ، لكنها شماتة متفائلة ، حيث تفضى الاستهانة إلى استهانة ، وحين يدرك الناس هذا يفقدون ثقتهم فيما هو شائع ومبذول ، ويبحثون عن الأصيل ولو كان متواريًا والساحة مليئة بالشعراء الأصلاء ، يشكون مما يشكو منه كتابك من أسوار العزلة ، ولعل التحية المقرونة بالشماتة دليل على أن المستقبل القريب «للشعر» .

هل الرواية ديوان العرب؟

الشعر العربى هو سر هذه اللغة ، وهو أحد الأدلة على إعجاز القرآن الكريم ، والنفاذ إلى مضايقه يعسر على كثير من أبناء هذا الجيل ، وإذا كان هو ديوان العرب وفنهم الأول . . فينبغى أن يظل كذلك حتى ولو حاصرته فنون أخرى أو شوهت معالمه فئة تتعاطاه دون فهم أو موهبة .

والفن الروائى والمسرحى فن مستزرع فى لغة العرب ، وإن حاولنا رؤية جذور لهما فى التراث القديم ، ومن ثم لن يكون لهما - فيما نرى - ماللشعر من جذور موغلة فى هذه اللغة ، إلا إذا استطاع كاتبهما أن تنهض لغته ، وأن تكون له لغة داخل اللغة العامة وبذلك يقترب من فن الشعر ، ونحن - عادة - نثنى على لغة القصة والمسرح النثرى حين تكون مكثفة ومتوترة وشاعرية فى المقام الأول لأنه ابن اللغة الشاعرة .

ولعل كاتبنا الكبير نجيب محفوظ قمة فى لغته لأنه استطاع باقتدار - أن يطوع الفصحى العالية لمقتضيات الفن القصصى وشرائطه ، ولم يتأت له ذلك إلا بالوقوف العميق على طرائق التعبير العربية فى نماذجها العليا ، كما تأتى لآخرين أمثال المازنى والعقاد والجارم ويحيى حقى ومحمد عبدالحليم عبدالله وآخرين لأن أغلب كتابنا فى القصة والمسرح وأغلب نقادهم كذلك لايقفون وقوفًا جيدًا عند تراثنا العربى ، كما يصنع الأجانب وحسبنا أن نذكر أنطونيو جالا ومسرحياته وروایاته؛ لنرى طرازًا من الفن الرفيع لغة وتقنية ، ربما يتساهل فيها بعض كتابنا فيقعون فى منتصف الطريق .

والدكتور على الراعى فى حواره المنشور بالأهرام الأدبى ٢٠/ ٩/ ٩٤ قال كلامًا غريبًا ، وإن كان لايستغرب منه ، فالرجل أنفق عمره فى نقد الرواية والمسرح وميل الإنسان لعمله شئ غريزى ، إلا إذا جار على فنون أخرى لمجرد هذا الميل لا لسبب موضوعى ، ومشكلة الدكتور على الراعى ومن يحذون حذوه أنهم متخصصون فى شىء واحد فقط ، مع أن الفن لايتجزأ وله وجهة نظر نحن

نختلف معها خلافًا جذريًا ؛ لأن التوجه مختلف . . نحن نعتقد بيقين أن الدكتور الراعى متواضع المعرفة بفن الشعر العربى ، ولذلك ساء ظنه بالشعر وبشعر العقاد خاصة وبمقولة العقاد عن فضل الشعر على القصة وبصرف النظر عن موقف العقاد . . فإن كثافة الشعر عن القصة شيء لايمكن إنكاره ، وحسبنا أن نقول شعرًا فى الغزل لا فى التصوف فقط كما رأى الدكتور الراعى، يقول الشريف الراضى :

وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

ويقول العقاد - الذى لايعجب الدكتور الراعى :

لم أدر كيف يتاح لى نسيانها وخيالها فى ناظرىّ معلق
حتى نسيت فعدتُ أذكر أنها كانت هواى فلا أكاد أصدق

مثل هذا الشعر يحتاج إلى صفحات من الرواية لتقول ماقاله ، وبين يدى آلاف الأمثلة لمثل هذا الإيجاز المحكم ، ذى المضامين المتفجرة . . ثم إن الرواية - كما رأى العقاد - تروج بين طوائف غير طوائف الشعر الذى يحتاج قارئوه إلى استعداد خاص ، صحيح أن ثمة روايات جيدة ، ولكن جودتها لاقترابها من الشعر ، ويرى الدكتور الراعى أن الشعر لينقذ نفسه عليه أن يكون مسرحيًا ، وكان بودنا أن نرى هذا المخرج ، لولا أن الشعر سيظل غنائيًا ومسرحيًا فى كل لغات الأرض ، وثمة مسرح شعرى لايساوى الورق الذى كتب عليه .

وإذا رأينا الشعر فى أزمته الآن . . فلايكون البديل الرواية أو المسرح ، بل علينا البحث وعلاج الأزمة ، ولن يكون إلا بالتعليم الجيد ، والوقوف على التراث الحقيقى لهذه الأزمة ؛ لتعيش عصر الشعر فن العربية الأول ، وعلينا أن يظل فنها الأول ، غير أن الفساد قائم ، ومحاربة الشعر عنيفة ، وحسبنا ضياع مصطلحه الآن ، وبلبلة القارئ والناقد والمبدع . ولم يحدث هذا فى الرواية أو المسرح رغم التجريب ، ونعتقد أنها حرب مقصودة لأنها تطعن العربية فى الصميم ، والناقد الذى يتخصص فى النثر - متقوعًا - ليس بالناقد المستقيم حكمه فى لغة العرب ، وكم كنا نود أن نسعد الدكتور الراعى إيمانًا بما يراه . . لكن ليس بأيدينا أن نزجى إليه مثل هذه السعادة فنحن نناقضة أشد المناقضة .

إنى أشم رائحة الفأر

ظنٌ يساورنى وأدافعه ، وكم أود أن يكون من بعض الظن ، لأنه يتعلق بلغة هذه الأمة ، وبشعرها الذى هو جوهر فنها ، وآية ذلك أنى أرى مايحاك ضد هذه اللغةوضد فنها الأول ، بيد أبنائها لا بيد عمرو ، فأشم رائحة الفأر كما يقال فى المثل .

جاءت حركة الشعر الحر لتنسف نظامًا راسخًا ، ربما كان من أدق الأنظمة ، واستبدلت به «نظامًا ناقصًا» إذا صحت تسميته بالنظام ، لأننا - فى الحقيقة - لانئول فيه إلى قاعدة تحتمل التصويب والتخطئة ، وساعد على رسوخ هذه الحركة عوامل أدبية وغير أدبية ، وقد ركب هذه الحركة شعراء لهم وزنهم فى الشكل الموزون المقفى ، فأعطوها بعض الشرعية ، وجعلوا لها بعض القبول لدى الناس ، لكن هذه الحركة أيضًا امتطاها العجزة والمقلدون ، ومن لايستطيعون قراءة الشعر سليمًا لا إبداعه ، فشاهت الحركة ، وهى التى قضت - عامدة أو غير عامدة - على جمهرة من شعراء الشكل الخليلى ، الذين استحر بهم القتل - واقعًا وفنًا - فلاذوا بأسوار العزلة ؛ حتى تنجلى الغاشية، وغدونا نرى شعراء هذه الحركة يقولون - فى الأغلب الأعم - كلامًا وسطًا ، متشابهًا ، لاينماز فيه قائل من قائل، وإن كانوا قد انتصروا إعلاميًا ، وغدت لهم الساحة شبه خالية ، إلا مايكون من قبيل ذر الرماد فى العيون ، فيكون فى المهارج العامة قليل من أصحاب الشكل الخليلى ، ونفر قليل جدًا فى لجان الشعر منهم ، ولايكاد يكون لهم صوت مسموع .

لكن يبدو أن الأمور تسير بسرعة غير معهودة ، إذ جاءت الساحة أمة أخرى ، ترى فى الشكل الحر رجعى إلى جرير والفرزدق ، وأن الأوان قد آن «لقصيدة النثر» التى تجرف القصيدة الحرة - وهى تستند إلى التفعيلة العروضية - ودعك إذن من القصيدة الموزونة المقفاة ، فتلك من البرابى القديمة ، التى تتكفل بها هيئة الآثار!!

وعلى الرغم من أن هناك مغازلة من بعض رموز الشعر الحر لأصحاب قصيدة النثر ، محاولة لاحتوائهم ، إلا أن الزمام قد أفلت ، فلايعترف الأخيرون بأصحاب الشعر الحر ، ويرون فيهم قطعة متلكئة من الزمن الغابر ، وأنهم مجرد ضيوف على زمنهم ، وأن إبداعهم لحق بإبداع الجيل الماضى ، والحياة المتجددة لاتتسع لهم الآن ، فالزمن تجاوزهم تمامًا ، لا أقول ذلك رجمًا بالغيب بل هو كلام يتردد فى المحافل ، ويتولى كبره بعض المشرفين على أجهزة الثقافة ، فيقدمون هؤلاء «المجددين» ، على أنهم شعراء العصر ، بحسن نية أو بسوئها فالأمر سواء ، ويسحب البساط عمداً من حركة الشعر الحر التى «تخلفت» !!

أيها السادة !! ، ليس الأمر هزلاً ، وليس الأمر أن أمة دخلت فلعنت أختها ، لأن هذه الموجات هينة فى حساب تاريخ الأمة ، بل إن الأمر أخطر بكثير ، وهو: اصطلاح بعض أفراد هذه الأمة - إن كانوا منها فعلاً - على قطع الأواصر بينها وبين تراثها ، وإذا نجحت هذه الحركة - لاكانت - فلا أكثر من جيلين ، ولايكون لنا شعر ولافن ولا لغة ، وأنا أرى أن هذه الأشياء يخطط لها بدقة ، وأن الدور الآن : موت الشعر الحر لحساب النثر - عفواً «قصيدة النثر» ووراء الأكمة ماوراءها، وقد جرى «تطبيع» الشعر والموزون المقفى لحساب الهزل ، الذى لم أراه إلا فى هذه الأمة ، التى تمكن «أصحاب العاهات» من تجديد لغتها وشعرها ،

أيها السادة : إننى أشم رائحة الفأر !!

الشعر ديوان العرب

الموازنة باطلة بين الشعر العـربى ، وبقية فنون القول المعروفـة ، حيث لاجامع بينهما سوى أنهما من فن القول ، ويفترقان فى الجوهر اختلافًا بينًا ، فوزن الكلام يخرجه عن طبيعته ، أو يوجد له طبيعة مغايرة ، مع توافر شروط الشعر الأخرى، هى مسكوت عنها ؛ لأنها معلومة من الفن بالضرورة ، ومن ثم تكون قيمة الشعر وإن كان من جنس الكلام «فـإن المسك بعض دم الغزال» ولست مـتعصـبًا إلا لأن الشعر يستحق مثل هذا التعصب الموضوعى ، وإلا كان «كله عند العرب صابون».

الشعر ديوان العرب ، كلمـة قالها ابن عباس ، وقالهـا تاريخ هذا الشعر ونقده على مر العصور ، وإذا كان العرب قديمًا يحتلفون بميلاد شاعر ،لأنه لسان القبيلة والمعبر عن مفاخرهـا ومآثرها ، والذائد عنها ضد أى واغل ، فإنه فى الوقت ذاته لسان نفسه ، وإن تخفى وراء ألسنة كثيرة ، وحسبه هذا تعبيرًا عن تجاربه الذاتية ، التى ينشدها منه النقد المعاصر ، وقد اتسـعت أوزان الشعر أمام الشاعر ، واتخذها أبناء الأمم الأخرى نظامًا لهـم ، يبدعون فيه وبخـاصة الأدب الفارسى ، دون أن يشعروا بالضآلة ، وطالت فيه قصائدهم طولاً لانعهده فى شعرنا العربى .

وطبيعـة اللغة العربية . . وهى لغـة وزن واشتقاق ، هى التى جعـلت لشعرها ميـزة خاصة ، حتى جـعلته لغة داخل اللغـة ، وإذا كانت قد نشأت فنون قـولية أخرى فى هذا العـصر خاصـة ، فإنها تعلو بقـدر قربها من لغـة الشعر ، فيـقال شاعرية الرواية والقصة والمسرحية والمقال ، بل تعدت هذه الصفة فنون القول لتقول لوحة شاعريـة ، ومنظرًا شاعريًا ، وسينما شاعـرية إلى آخر هذه النعوت . . ربما تتداخل الأجناس لكن يبقى الشعر قوام الأمر وملاكه؛ لأنه ينفخ الحياة فى أوصال الكلام والأشياء الهامدة ، وربما يستعـير الشعر تقنيات الفنون الأخرى ، لكن يظل الشعر : لغة مخالفة ووزنًا وإيقـاعًا ، وماذلك بالشئ الهين فى نعت الكلام . كما أن الغنائية نسيج مهم فى تكوين السليقـة العربية ، فلاتنسلخ عنها ، إلا إذا تبدلت

خلقًا جـديدًا ، وقد استـزرعنا فنونًا أخرى قـولية ، وإن كانت لهـا بعض جذور عربية، لكننا «عربناها» فنمـزجها بتلك الغنائية مسرحًا وسـينما ، ومسلسلات . . مـساوقـة للذوق العـربى ، الذى يطربه ويهز أعـطافه كلمـة موقـعـة ، يحفظهـا وينشدها، ويتطرب بها ، وماذلك إلا بفن الشعر .

لقد قـال القدماء : إن الشعـراء أمراء الكلام ، فهل نقيس عليـهم لنقول : إن الشعـر أمير فنون الـكلام ، وإن كنت أكره الألقاب ، لكن هذا اللـقب فى محله الضرورى هنا ، ربما كـان الدافع إلى إزاحة الشـعر عن عرشـه مايعـانيه الآن من خصـاصة وفـاقة ، ومايـطل من وراء السطور عن رغبـة فى مساوقـة فنون الأمم الأخرى ، ولاشىء أدل على الاستـخذاء ممن يريد أن يربط فننا الأول بفنون الأمم الأخرى ، وليس لها تاريخ شعرنـا ولازهوه الحضارى ، ولادلالته على شرف هذه اللغة ، كـما أن هذه الخصاصـة تعترى كل الكائنات بما فـيها الكائنات القـولية ، ولعل من الصواب أن نعزو الخصاصـة إلى أبناء الأمة قبل أن نعزوها إلى فن كامل قائم بذاته ، لأنهم أصل الداء ، حين رضوا أن يزيحـوا الشعر عن مكانه ، وحين غم عليهم الأمر - جهـلاً أو سوء نية - فأطلقوا اسم الشعـر على ماليس بشعر ، لكنها أزمـة هينة يصمد أمامـها وأمام ماهو أعـتى منها فن العربيـة الأول ، وخير لأبناء الأمة أن تزيح الغبار عن فنها ، وأن تخلع عنه ماليس بشريف النسب إليه ، ومن ثم تعتدل الموازين ، وتسمو الأذواق ، حـيث لاسمو لها دون شعر ، وليكن الشعرُ طعامًا يومـيًا فى رواياتنا ومسرحياتنا وقصصنا ، ومـقالاتنا ، ومسلسلاتنا ، وأن نحميه من الواغلين عليه ؛ لأنه ديواننا قديمًا وحديثًا إذا كنا عربًا !!